ملخص

الداء و الدواء

بشرح المهندس علاء حامد

المحاضرة الثالثة

ملخص المحاضرة الثالثة

أضرار الذنوب والمعاصى/

يقول الإمام ابن القيم مما ينبغي أن يعلم أن الذنوب والمعاصي تضر ولا بد، وأن ضررها في القلب كضرر السموم في الأبدان، على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي؟! »ويستطرد ويقول فما الذي أخرج الأبوين من الجنّة دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟ وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء، وطرَدَه ولعَنَه، ومسَخَ ظاهره وباطنه، فجُعِلَتْ صورتُه أقبح صورة وأشنعها؛ وباطنُه أقبح من صورته وأشنع؟ وبُدّل بالقرب بعدًا، وبالرحمة لعنةً، وبالجمال قبحًا، وبالجنة نارًا تلظّى، وبالإيمان كفرًا، وبموالاة الولي الحميد أعظمَ عداوة ومشاقة .....« كل هذه الأسئلة الذى يذكرها الإمام ابن القيم لها إجابة واحدة فقط وهى الذنوب والمعاصى.

ثم ذكر الإمام فى الأثر عن جبير بن نفير قال: لما فُتحت مدائن قبرص وقَع الناس يقتسمون السْبي، وفرِّق بين أهلها، فبكى بعضهم إلى بعض، ورأيتُ أبا الدرداء تنحَّى وحده جالسًا، واحتَبى بحمائل سيفه فجعل يبكي، فأتاه جبير بن نفير فقال: يا أبا الدرداء! أتبكي في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله، وأذلَّ فيه الكفر وأهله؟! فقال: ويحك يا جبير! - وفي رواية ما أهون الخَلق على الله إذا هم ترَكوا أمره، بينا هي أمة قاهرة قادرة ظاهرة على الناس، لهم المُلك، حتى تركوا أمر الله - عز وجل؛ فصاروا إلى ما ترى..

فنتعلم من هذا الاثر أن الإنسان لا يغتر بوجود دول كبيرة تمارس المثلية والشذوذ وتخالف أمر الله ولم يأتيهم العذاب وذلك لأن الله عزوجل يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته كما جاء فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم وكما حدث مع فرعون يظلم لمئات السنين والله لا يعاقبه ويملى له

حتى أخذه العذاب، ومن أمثلة ذلك قوم نوح وغير ذلك من الأقوام ،فالإنسان لا يسيئ الظن فالله ويقول لماذا لم يحدث النصر فنقول هل حققت شروط النصر كما قال الله عزوجل:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾

فهل ننصر الله؟ هل ننصر سنة النبى صلى الله عليه وسلم ؟النصر يسير على الله عزوجل ولكن الله عزوجل يجب أن يرى منا أمرا عندما ننفذه ينتهى كل شىء، ومن الأسباب التى تعيق النصر الذنوب والمعاصى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يوشك الأمم أن تداعى عليكم، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: ومِن قلَّةٍ نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السَّيل، ولينزعنَّ الله مِن صدور عدوِّكم المهابة منكم، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوَهَن. فقال قائل: يا رسول الله، وما الوَهْن؟ قال: حبُّ الدُّنيا، وكراهية الموت.»

فبمجرد ما أصبحنا نحن الدنيا أصبحنا نشبه الكافر كثيرا هو يكره الموت ويحب والحياة ونحن نحب الحياة ونكره الموت فأصبحت القضية عدة وعتاد والكافر عتادة أكبر وقوته أكثر فيغلب أما عندما يكون هناك إيمان فتكون القوة أكبر وتكون هناك غلبة ونصر مثل خالد بن الوليد كان يذهب فيحاصر المدينة ويرسل إليهم رسالة جئتكم بقوم يحبون الموت كما يحبون الحياة والله لو لم تخرجوا لنا لحملنا الله إليكم، فالسبب الأساسى لوهن وضعف المسلمين هو الذنوب والمعاصى .

✓ الذنوب والمعاصى سبب فى نزول العقوبات العامة.

- يقول الإمام ابن القيم أن الذنوب والمعاصى سبب فى نزول العقوبات العامة.
- وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا ظهرت المعاصي في أمتي، عمهم الله عز وجل بعذاب من عنده ».

- وقال ابن مسعود إذا ظهر الزنا والربا فى قرية عمهم الله بهلاكها.

ونقول تنزل العقوبة على الأشكال التالية:-

كما ورد فى حديث أن المعصية إذا خفيت فلا تضر إلا صاحبها وإذا ظهرت نزل البلاء العام وهذا فارق كبير جدا ومؤثر لأنه لا يوجد زمان إلا وفيه ذنوب ومعاصى ولكنها إذا خفيت دليل على أن أهل الحق أقوياء وأن الحق ظاهر ودليل على أن العاصى لا يستطيع أن يجاهر بالمعصية فهنا لا تنزل العقوبة العامة ولكن تنزل العقوبة الخاصة على صاحبها.

عندما تظهر المعاصى تكون على مستوى آخر عند الله فإذا ظهرت المعصية وكان أهل الحق أقوياء وعددهم كبير وينكروا المنكر ويجاهدوا فى تقليل الشر فهنا لا ينزل البلاء والعقوبة العامة رغم ظهور المعصية وذلك لقوة أهل الحق ومحاربتهم للمعاصى.

أما إذا ظهرت المعصية وكان الأقوى والأكثر أهل الشر والفساد وكان أهل الحق أضعف هنا ولابد تنزل العقوبة العامة وهذا حديث أم سلمة رضى الله عنها قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ صَالِحُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ, وَإِنْ كَانَ فِيهِ صَالِحُونَ, يُصِيبُهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسُ ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَى رَحْمَةِ اللهِ وَمَغْفِرَتِهِ.

عندما تنزل العقوبات العامة على الناس سوف ينقسموا إلى قسمين:

- قسم كان ينكر المنكر.
- وقسم لا ينكر المنكر.

فيكون من لا ينكر المنكر مهدد ومعرض للعقوبات كما جاء فى بعض الآثار أن الله عزوجل أرسل ملائكة إلى قرية فقالوا إن فيها رجل صالح فقال به فابدؤا فإنه لم يتمعر وجهه من أجلى.

وهنا نقول أن الصلاح يلزم إنكار للمنكرات فبالتالى عندما لا تنكر فأنت تقع فى ذنب السكوت على المنكر وإذا نزلت العقوبة على أهل الذنوب والمعاصى فيكون معرض ومهدد، أما عندما يكون الشخص صالح

ومصلح عندما تنزل العقوبة العامة تكون له رحمة وتكفير للذنوب ورفعة للدرجات.

هذا ينقلنا إلى حديث أبو بكر الصديق رضى الله عنه «أنَّ أبا بَكرٍ الصِّدِّيقَ رضيَ اللَّهُ عنْهُ خطبَ النَّاسَ على مِنبرِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فقال: "أيُّها النَّاسُ إنَّكم تقرءونَ هذِهِ الآيةَ وتضعونَها في غيرِ موضعِها: يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ وإنِّي سمعتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ إنَّ النَّاسَ إذا رأَوُا المنْكرَ فلم يغيِّروهُ أوشَكَ أن يعمَّهم اللَّهُ بعقابِ من عندِهِ".

هذا الفهم الخاطئ كثير منا يقع فيه وهو إذا كنت مهتدى فلن يضرنى الذى ضل وهو يعتقد أن الهداية تكفى وهذا الفهم خاطئ لأنه لن يكون الشخص صالحاً إلا إذا كان مصلحاً وهذه هى الفكرة التى تحدث فيها الإمام ابن القيم ودعمها ببعض الآثار مثل:

وَذَكَرَ ابْنُ أبِي الدُّنْيا عَنْ أنَسِ بْنِ مالِكٍ: أنَّهُ دَخَلَ عَلى عائِشَةَ، هو ورَجُلٌ آخَرُ، فَقالَ لَها الرَّجُلُ: يا أُمَّ المُؤْمِنِينَ حَدِّثِينا عَنِ الزَّلْزَلَةِ، فَقالَتْ: إذا اسْتَباحُوا الزِّنا، وشَرِبُوا الخَمْرَ، وضَرَبُوا بِالمَعازِفِ، غارَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ في سَمائِهِ، فَقالَ لِلْأرْضِ تَزَلْزَلِي بِهِمْ، فَإنْ تابُوا ونَزَعُوا، وإلّا هَدَمَها عَلَيْهِمْ، قالَ: يا أُمَّ المُؤْمِنِينَ، أعَذابًا لَهُمْ؟ قالَتْ: بَلى، مَوْعِظَةً ورَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، ونَكالًا وعَذابًا وسُخْطًا عَلى الكافِرِينَ.

فى هذا الحديث عندما يسمعه الجهال يقولون أن أسباب الزلازل طبيعية فنرد عليه ونقول لماذا إذا حدثت هذه الأسباب الطبيعية التى أدت لحدوث الزلازل فلا بد ولا شك أنها الذنوب والمعاصى فلا تعارض أبدا بين التفسير المادى والإيمانى كما كتب عمر بن عبد العزيز للأمصار أن هذا الرجف شىء يعاتب الله به العباد.

من عقوبات الذنوب تسليط الظالمين على المؤمنين:

أورد أثر عن موسى عليه السلام: يا رب، أنت في السماء، ونحن في الأرض، فما علامة غضبك من رضاك؟ قال: "إذا استعملت عليكم خياركم فهو علامة رضائي عنكم، وإذا استعملت عليكم شرار كم فهو علامة سخطي عليكم".

كما ورد عن الحسن إذا أراد الله بقوم خيرا جعل أمرهم ٱلى حلمائهم وإذا أراد الله بقوم شراً جعل أمرهم إلى سفائهم.

✓من عقوبات الذنوب أنها تجعل فالقلب نكت سوداء.

إنَّ المؤمنَ إذا أذنب ذنبًا كانت نُكتةٌ سوداءُ في قلبِه، فإن تاب، ونزع، واستغفر صقَل منها، وإن زاد زادت حتَّى يُغلَّفَ بها قلبُه، فذلك الرَّانُ الَّذي ذكر اللهُ في كتابِه: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ}.

فنتعلم من ذلك المسارعة فى التوبة وإحداث طاعة بعد الذنب مباشرة فلا يحدث أثر لهذا الذنب فى القلب ولا تنزل العقوبة على صاحبه لأنه تاب وإذا أهمل الإنسان الذنب فسوف تتراكم فى قلبه النكت السوداء حتى يصبح يرى الحق باطل والباطل حق والسنة بدعة والبدعة سنة ولعياذ بالله

✓من عقوبات الذنوب إلقاء البغض فى قلوب العباد.

فتجد الصالحين يبغضونك وقال قال ابو الدرداء ليحذر امرؤ أن تلعنه قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر قال اتدري مم هذا؟ إن العبد يخلو بمعاصي الله فيلقى الله بغضبه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر.

الحواشى المتعلقة بالذنب/

وهنا ينقلنا لنقلة أخرى مختلفة وهى أن الفكرة ليست فالذنب وحده وإنما فى الحواشى المتعلقة بالذنب فيقول: (يا صاحبَ الذَّنْبِ لا تأمَنْ سوءَ

عاقبتِهِ ولَما يَتْبَعُ الذَّنْبَ أعظمُ منَ الذَّنبِ... إذا عملتَهُ قلَّةُ حيائِكَ ممَّن على اليمين وعلى الشِّمال ـ وأنت على الذَّنبِ ـ أعظمُ من الذَّنبِ... وضَحِكُكَ وأنتَ لا تدري ما اللهُ صانعٌ بكَ أعظمُ من الذَّنبِ... وفرحك بالذَّنبِ إذا ظفرتَ به أعظمُ من الذَّنبِ... وحُزْنُكَ على الذَّنبِ إذا فاتَكَ أعظمُ منَ الذَّنبِ... وخَوْفُكَ من الرِّيحِ إذا حَرَّكَتْ سِتْرَ بابِكَ وأنتَ على الذَّنبِ، ولا يضطربُ فؤادُكَ منْ نَظَرِ اللهِ إليكَ أعظمُ منَ الذَّنبِ إذا عملتَهُ.

لذلك نتعلم أن لا ننظر لصغر الذنب ولكن ننظر لقدر من عصيت لأن الفكرة ليست فى الذب كونه صغير أو كبير ولكن كما قال الفضيل بن عياض بقدر ما يصغر الذنب عندك يكبر عند الله وبقدر ما يكبر عندك يصغر عند الله.